خمس قصص طويلة بصوت الحكائي البديع

القاهرة ــ **أحمد مجدي همام**

قصص ألبير قصيري «بشر نسيهم الله» الصادرة في طبعة جديدة عن «دار الهلال» في القاهرة بترجمة لطفي السيد، لا تحمل دراما فجّة حدثية متصلة وواضحة، لأن الحدث هنا ليس البطل، بل إن ثيمة الفقر المدقع، وعالم المهمّشين، مضافة إلى الصوت الحكائي البديع والاستثنائي لقصيري تشكّل القوام الرئيس للعمل.

في «بشر نسيهم الله»، خمس قصص طويلة، تراوغ بشكل واضح أثناء محاولة تصنيفها. الكتاب ككل مخاتل يراوح بين المجموعة القصصية، والمتتالية القصصية. بل إنّ هناك من تطرف في محاولته تصنيف الكتاب ضمن بند «الروايات». ذلك أن ثمة بعض الملامح والمعطيات المشتركة بين النصوص الخمسة (ساعي البريد ينتقم، البنت والحشّاش، الحلاّق يقتل زوجته، خطر الفانتازيا، الجياع لا يحلمون إلا بالعيش)، مثل حضور شخصيات وأسماء كالساحر، ومروّض القرود، ومدرسة المتسولين، وعالم الهامش والفقراء والمنبوذين التعساء. في لوحات كثيراً ما تحتشد بالعديد من الشخصيات والأسماء، مضافة إلى أبطال القصة الرئيسيين.

في «ساعي البريد ينتقم»، هناك حوار عبثي بين ساعي البريد، وحنفي المكوجي. بالرغم من كون الأول شخصاً مستضعفاً يتعرض لمضايقات من سكان الزقاق، إلا أنّه يؤمن بأنه أرقى اجتماعياً وفكرياً من مجموع الحثالة الذين يسكنون الحي. ذلك أنه موظف حكومي، يعرف القراءة لأنه واصل دراسته حتى المرحلة الابتدائية. وبناءً عليه، فإن الساعي في ذلك اليوم، وفي دردشة عابرة مع المكوجي، يكشف سره الخطير، ويحكي عن معرفته بأسرار كل ساكني الزقاق لأنه يقرأ لهم الرسائل بعد تسليمهم إياها. وبناءً على معرفته تلك، يسعى لتعليم سكّان الحي وتثقيفهم وتنويرهم، هو الساعي الضعيف، الذي لطالما تعرض للضرب والامتهان من رجال الزقاق، مثلما تعرّض للرجم بالحجارة والشتائم من الأطفال والنسوة.

المفارقة هنا أن الساعي نفسه ليس سوى نقطة صغيرة في عالم الزقاق، مجرد بائس آخر، إلا أنه بائس يتوسّم في نفسه العظمة. وبين البؤس من جهة، ووهم الأهمية من جهة أخرى، تتولّد المفارقة الساخرة التي تسم سرد قصيري في هذه القصة. ثمة ابتسامات مبثوثة في طيّات الحكاية، حتى أثناء حديثنا عن فقيرين لا يمتلك أي منهم أدنى مقومات الحياة الآدمية.

حوار طويل آخر في قصة «البنت والحشّاش» يدور بين الرجل المدمن على تدخين حشيشة الكيف، والفتاة اليافعة، التي تتسلل من بيت أهلها ليلاً كلّما تيسّر لها ذلك، لتصعد إلى حجرة الحشّاش وتطارحه الغرام. الديالوغ إذن أداة رئيسية ضمن أدوات قصيري في سرده.

ثمة وعي مسطول يمثّل أحد طرفي الحوار، بينما على الجهة الأخرى، يحضر عقل صغير متّقد ومشدود بالأسئلة. القصة في مجملها حوار عجائبي بين الطرفين، يستند في منطقيته على غياب عقل الحشاش، تحت تأثير المخدر، وتحت تأثير ارتعابه من أزمة الحشيش المقبلة التي سيشح فيها النبات السحري الذي يدخّنه المصريون بنهم وحب. يساوي الحشّاش بين غياب الحشيش ونهاية العالم، بينما لا تجد الشابة مبرراً مقنعاً لحالة هذيان الحشاش، التي تجعله يشرد أثناء حواره في تهويمات وضلالات تضفي على القصة بعداً حلمياً كابوسياً إلى حد ما. في النهاية، يكتفي الفقيران بالانخراط في نوبة جديدة من الجنس، تلك اللذة الوحيدة المتاحة لهما، كبديل رئيس لغياب أساسيات كثيرة لاستقامة أي حياة. الجنس هنا وردة بائسة تنبت في المزبلة والخرائب.

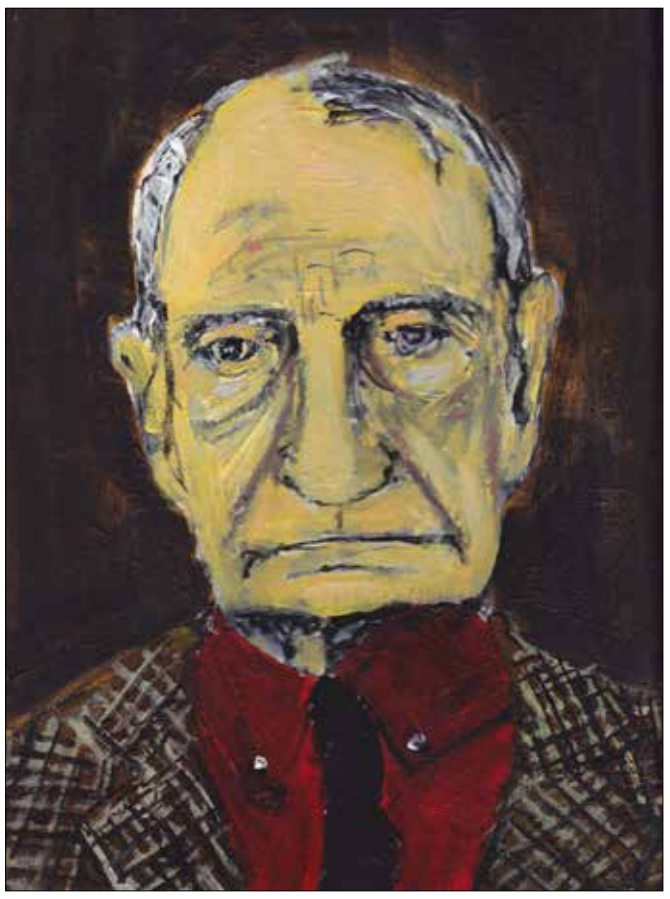

الثورة هي محور القصة الثالثة «الحلاّق يقتل زوجته». إنّها ثورة مبطّنة، وإن تم قمعها بوحشية. فكرة التمرّد على تلك الحياة شديدة القحط والبؤس. بين إقدام سعدي الحلاق على تسميم زوجته، وبين ثورة الزبالين والكنّاسين ثمة رابط ما، يحاول «شاكتور السمكري» استجلاءه، عبر سلسلة طويلة من التأملات، تتخللها حوارت مقتضبة تجمعه مع ابنه الصغير الحالم بخروف العيد، والعسكري جحلش الذي قمع تمرد الكناسين، والمفكر الشعبي حاروسي، الذي اتّهام بأنه من أقنع الحلاق بقتل زوجته، قبل تبرئته.

في «خطر الفانتازيا»، يكتب قصيري عن ثورة في عالم التسوّل، والصراع بين الجديد والقديم، أو الكلاسيكية والحداثة، في ثوب قصصي ذكي. الصراع هنا بين فريقين: الأول يقوده المدرس في مدرسة المتسولين الشيخ أبو شاوالي، والثاني يمثله المثقف توفيق جاد. الأول من أنصار مدرسة «الشفقة»، يرى أن المتسول الحقيقي والمتقن لحرفته هو الذي يثير شفقة المانح بسبب هيئته المزرية وعاهاته واتساخه منقطع النظير. أما المثقف توفيق جاد، فيرى أن الصيحة الجديدة في عالم التسول تقوم على «التعاطف». يجب أن يكون المتسول الصغير نظيفاً ومهندماً ومُسَّرح الشعر ليعطيه المانح عن حبّ، ما يجعله ربما يغدق في عطائه من دون أن يشعر بقلق لأن ثيابه لن تتسخ عند اقتراب المتسول.

وأخيراً، في القصة الختامية «الجياع لا يحلمون إلا بالعيش»، يحكي قصيري المعاناة الوجودية التي يعيشها الممثل المغمور سيد كرم، وتساؤلاته حول العبث واللاجدوى في هذه الحياة. يؤمن سيد كرم أنّ الحياة لا تحتاج إلا لأساسيات قليلة كي تُعاش: «العالم لا يحتاج لأمور عظيمة، البشر جوعى يا ربا، فالجياع لا يحلمون إلا بالعيش، كل شيء آخر حماقة. مثلاً – قال بعد لحظة – الرجل ذو النعال البالية، أنا متأكد أنه لم يأكل هذه الليلة».

بالتوازي مع ذلك، يسرد قصيري معاناة عشيقة سيد كرم، معتلة الصحة التي تضطر لمصارعة الحياة لتتدبر أمرها وتجد لنفسها مصدر رزق... لوحة أخرى عن البؤس والفقر والضنك والشقاء وكل معاناة المهمشين والبائسين الذين لا يشكلون في أوراق الدولة سوى حفنة من الأرقام، بينما يحاول قصيري أن يوجد معنى لتلك الأرقام ويمنحها عمقاً وحياة وأبعاداً ثلاثية.

> **ثمة ملامح بارزة لأسلوب قصيري: الحوار حاضر دوماً كبطل رئيس**

> **عدميته التي كانت تستخف بالعالم وقضاياه الكبيرة غلّفها بحس ساخر جذب كتّاب الأجيال الجديدة**

للقصص التي يقوم أغلبها على وحدة المكان حيث حوار في ورشة، أو جدل على مخدع، أو نقاش في مقهى، لا يذهب بعيداً عن المكان إلا في حال استحضار حكايات أخرى مغزولة داخل الحكاية الأم. كذلك، تبدو الدراما الحدثية باهتة في البناء القصصي لهذه المجموعة، فالتأملات والتفكير والأحلام والتساؤلات المونولوجية أو حتى الديالوغ تقوم بدور الداعم والمقوي لتلك الدراما الخفيفة. هذا بخلاف الأسلوب المميز والساحر لقصيري، عبر جمل قصيرة وسخرية خفيفة وفصاحة خاصة، ينزلق سرد مجموعة «بشر نسيهم الله»، بشكل آسر وناعم. صدرت المجموعة في القاهرة عام 1941، ويقوم جانب من جماليتها على قدرتها على عبور السنوات، لتظل صالحة للتعاطي وممثلة عن الواقع الذي ما زال يحرص على إيجاد مهمشين وفقراء، وإن بكميّات أكبر في سنواتنا هذه.

كتب عن مصر... ليتأكد من وجوده

لطفي السيد *

توفي ألبير قصيري في 22 حزيران (يونيو) 2008 عن عمر يناهز الخامسة والتسعين عاماً، إلا أنه لم ينجز سوى ديوان شعري واحد مفقود ومجموعة قصصية وسبع روايات، ورواية لم تكتمل لوفاته.

ربما ليس هذا المنجز بكبير على مستوى الكم، لا سيما أنّه بدأ الكتابة في سن العاشرة والنشر في سن السابعة عشر. لكن عندما تكون الكلمة؛ بل الحرف عزيزاً لدى الكاتب، فإنه يدقق ويُقل في كتاباته. لم يكن قصيري يكتب ثم يُلقي في سلة القمامة أو يستخدم المحاة. كان ذلك نادراً، فهو كما قال في أحد حواراته مع مجلة «لو ماغازين ليتيرير»: «تقريباً لا أستخدم المحاة. أتريث في الكتابة حتى أجد الكلمة المناسبة. فقد أظل أبحث عنها لأيام، ليست هناك جمل مجانية في كتبي؛ لذلك أكتب ببطء». في باكورة أعماله وهي مجموعته القصصية الوحيدة «بشر نسيهم الله»، كان قد نثر بذور ـ أفكار وعوالم وديكور وشخوص ووظائف هذه الشخوص ـ رواياته السبع التالية.

إن قصيري حكاء بديع. وفي هذه المجموعة، يظهر بذخ الأفكار التي سيتمكن من معالجة الكثير منها في ما بعد على نحو أكبر. وهذه المجموعة كتبها في سن مبكرة وهو ما زال بعد في السابعة عشرة. ولقد احتفى به وبها هنري ميللر عبر هذه الكلمات: «لم يصف أي كاتب حيّاً على هذا النحو الموجع والصُلب، حياة أولئك الذين يشكلون - في الجنس البشري- الحشد الضخم المبتلع».

النوم، تعاطي الحشيش، السخرية، نقد السلطة القمعية والجائرة، الثورة، اللصوص، المتسولون، الفانتازيا... هذا ما كان في مجموعته الأولى وما كان في رواياته التالية، ولكن على نحو موسع.

ليس ذلك لنضوب فكره أو لضيق عالمه لكن لأنه يحاول أن يعبر عن الإنسان وعن مشاكله وأزماته التي ربما تتلخص لديه في وجوده على قيد الحياة وأن يكون حرّاً. أو كما يقول الناقد الفرنسي فريدريك ساينين عن الشخصيات التي يصورها قصيري: «إنها بشكل أساسي أقاثارات أناه الخاصة، التي يشكل ملامحها لإقامة كيانات مستقلة وراسخة: الكسالى، الشهوانيون، اللواطيون، المحتالون والمفسدون والبغايا، والإرهابيون، والمشعوذون، والمتغندرون في حالة يرثى لها والأثرياء اللاأخلاقيون. إن قصيري لا يرى نفسه روائيّاً ولا كاتباً قصصيّاً؛ بل صاحب أفكار يعبر عنها من خلال شخوصه. ولذا قرب نهاية حياته قال: «لقد قلت تقريباً ما كنت أود قوله».

لكن علينا أن نتساءل: لماذا لم تغادر مصر وحاراتها ورائحتها وشخوصها ومهمشوها، بل قاعها من المتسولين واللصوص والداعرات...، عقل وروح وذاكرة وكتابة ألبير قصيري؟

في هذا السياق، أشار الكاتب الراحل إدوار الخراط إلى أنّ قصيري كان ينحو إلى نوع من الغرائبية، وعلى الأخص في تسمية أبطاله الذين يعطيهم أحياناً أسماء يصعب تصديقها! أو لم نسمع عنها قط كأنها منحوتة من مزيج العامية المصرية والفرنسية. كما نجد الناقدة الرومانية لافينا أدينا هورنر في «جامعة تينسي» في نوكسفيل تورد في أطروحتها «خيال ألبير قصيري، صيغة لتجاوز الزمان والمكان» أن هذا الأمر كان بمثابة عملية إثبات لوجود قصيري؛ فكما يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت «أنا أشك، إذن أنا موجود».

يبدو أن قصيري كان يكتب عن مصر ليتأكد من وجوده. الكتابة هي الميراث العيني والمحسوس والحقيقي الذي نتركه؛ أو كما قال في إحدى مقابلاته في مجلة «لو ماغازين ليتيرير»: «لقد غادرت مصر، لكني لم أود أن تغادرني». أو بمعنى آخر إذا كان مارسيل بروست في رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يجعل الحواس هي من تطلق الذاكرة، فعلى سبيل المثال تذوق حلوى المادلين يجعله يتذكر مرحلة الطفولة؛ نجد في حالة قصيري الأمر معكوساً. إنه يستخدم ذاكرته حتى ينشط وينعش حواسه من أجل أن «يشعر بـ» و«يرى» مصر. كما يقول أيضاً «أحافظ على هويتي الشرقية. أنا مثل شخصياتي». لقد حملها بداخله وفي كتاباته إلى درجة أنه نجح في أن يحيا مصره الخيالية.

إن الكتابة بالنسبة لقصيري هي بمثابة علاج. لقد حظي من خلالها بعيش لحظاته الماضية مجدداً. لحظاته الهاربة أو بمعنى أدق إنه في محاولة للبحث عن زمنه المفقود حتى يخفف ندمه على عدم وجوده هناك (في مصر) الآن ولتخفيف حالة النوستالجيا.

إننا نرى في مجموعته «بشر نسيهم الله» كما في باقي أعماله مشهداً لعالم ذي وجهين: وجه واضح، جلي، ذلك هو وجه المشهد الذي تدور أحداثه على المسرح، وجه مرئي بالنسبة للجميع، يشكله البوليس، الوزراء، الأثرياء. ووجه خفي، مبهم، ذلك هو وجه الأحداث التي تدور في الكواليس حيث نجد الشحاذين، متعاطي المخدرات، اللصوص، الداعرات، والفقراء. عالمان لا يفهم كل منهما الآخر. فلا يستطيع الأثرياء فهم الفقراء، ولا يستطيع الأميون رؤية ما هو واضح بالنسبة لهؤلاء المثقفين. وبالتالي إدراك العالم يمر عبر المُرَشِح بكل شخص. وفي هذين العالمين، يتماهى قصيري مع شخصياته ليواصل حياته بمساعدتها. فهو بنفسه في حديث لمجلة «النوافذ الفرانكوفونية» يؤكد: «كل شخصياتي هي ألبير قصيري». لذا نجد الكاتب ، حتى لو وصف مشهد العالم والآخرين، فإنه في نهاية المطاف سيصف نفسه أيضاً لأنه مثل شخصياته. بالرغم من قولنا إن مجموعته الأولى «بشر نسيهم الله» هي البذرة الأولى لكل أعماله الروائية التالية، فهل يسعنا أن نقول: إن فكرة الثورة فيها تنحو إلى فعل خارجي يشتبك مع العالم، بينما في أعماله التالية سيكون الأصل في الثورة السخرية؟ على سبيل المثال، نجد في قصة «البنت والحشاش» فايزة التي تهرب من أهلها، أو في قصة «ساعي البريد ينتقم»، يحاول زوبا البوسطجي أن يغير من أهل الحي، من حنفي الذي حوّل دكانه لغرزة لتدخين الحشيش، إلى ثورة الكناسين التي قوبلت بالقمع، وأمثلة أخرى كثيرة. إنها لوحة فريسك رسمها قصيري للشعب المصري منذ أكثر من سبعين عاماً، إلا أنها لا تزال تحتفظ بنضارتها وحيويتها كأنها رسمت اليوم، ولن تسقط صلاحيتها الفنية أو الفكرية بالتقادم؛ لأنها لوحة الإنسان التي ستبقى ببقائه.

مترجم مجموعة «بشر نسيهم الله» التي صدرت أخيراً عن «دار الهلال»